

## (1909-2009) مجلة "العرفان" ومؤسّسها في الدائرتين الصغرى والكبرى [2]

الحلقة الثانية الاخيرة من دراسة الدكتور طريف الخالدي حول مجلة "العرفان":

عشيرة الاسعد. وبذا اقتسمت هذه الاسر الاربعة فيما بينها عمليا التزام الضرائب والكثير من

طريف الخالدي

حالة استمرت نحو 12 سنة الى ان اجري الفرنسيون اولاً تسوية الاراضي في اوائل الثلاثينات ثم افوا بعدئذ جميع ضرائب الارض. وقد أحكم الانتداب الفرنسي في العشرينات قبضته الاقتصادية على لبنان الكبير واقتطع لحسابه مبالغ طائلة من الذهب من سوريا، او قيل انه فعل ذلك، لربط العملية السورية بالفرنك الفرنسي المتأرجح.

وتفاقم على صفحات العرفان جدل اقتصادي عنيف مثير للاهتمام. وتغدو مناهضة الطائفية مسألة من المسائل حينما ادرك كثيرون ان وحدة العمل الاقتصادي ضد الانتداب هي هدف جدير بالاعتبار<sup>(32)</sup>. واصبحت بيروت عاصمة مزدهرة على عجل، فتبدو وكأنها بابل العصرية لمحرر العرفان المنذهل. والجبل تفرض عليه الضرائب الباهظة ويجري تجاهله باطراد من قبل الفرنسيين. وتنعكس افتتاحيات العرفان في العشرينات بين حين وحين خيبة الأمل العميقة في الانتداب، فيبرز منها الرأي القائل بأن الانتداب ليس افضل من الحقبة العثمانية بل ربما كان اسوأ منها بكثير.

انطلق العنف في جبل عامل على مرحلتين رئيسيتين. المرحلة الاولى هي تمرد ادهم خنجر وصادق حمزة، والثانية هي حادث سنة 1936 في بنت جبيل. في الحالة الاولى كان التمرد عبارة عن تمرد فلاحي عفوي تصادف مع فجأة التغييرات الضريبية. وفي الثانية كان الامر هو ان ادارة التبع التابعة للدولة فرضت اجراءات اقتصادية قاسية انتقاماً من الزعماء الراديكاليين والوجهاء الجدد الذين يقودون مزارعي التبغ المتدمرين. وبذا تكون طبقة الفلاحين متورطة مباشرة في الازمتين السياسييتين الكبيرتين لجبل عامل خلال الانتداب الفرنسي<sup>(33)</sup>.

-5-

لم تستطع العرفان تسجيل هذين الحديثين بالدرجة نفسها من الحرية التي سجلت بها الحقبة العثمانية الطويلة. فالمجلة، شأنها شأن طبقة العلماء التي ينتسب اليها المحرّر، حملت عن الامور نظرة اخلاقية

متشددة، وكانت بمعزل عن السياسة اليومية، وان لم تكن منفصلة عن الموضوعات السياسية النظرية. وكان الانفصال السياسي انعكاساً لسياسة الحذر التي تنهك بها طبقة العلماء. فعلماء جبل عامل يحدرون من "لا وعي جماعي" علمهم الوقوف على مسافة امينة من الامبراطوريات كما علمهم معاملتها بحذر. والشيخ احمد عارف الزين قد اوجد مجلة حصيصة سياسية في روحيتها والتي تتيح لنا ان نلاحظ كيف رأى العلماء بخاصة دنيا جبل عامل. والمدارس المؤسسة في اواخر القرن التاسع عشر علمت العاملين تفهما ادق من الناحيتين التاريخية واللغوية للنصوص الاسلامية الشعبية. وغرست هذه المدارس في طبقة الوجهاء خاصة تفهما اكثر تهذيباً للتحوّل السياسي والاقتصادي. وكان العلماء، حتى قبل ان يصرّخ الزعماء القدامى والجدد مع العثمانيين والفرنسيين، كانوا مندفعين وحدهم ضد الهيمنة الفكرية للنجف. مع هذا، ومع ان العلماء كانوا هم اوائل حملة التغيير العقائدي في هذه الفترة فانهم كانوا آخر المجموعات الاربعة في انضمامها للكفاح السياسي، عقب اضطرابات 1936.

ان العرفان، مجلة "العلماء" تعطينا نظرة شاملة وهادئة عن هذه التحولات التاريخية. ان نهضة جبل عامل كما تعكسها المجلة موضوع جدير بالتقويم الشامل. وينبغي القيام بذلك عاجلاً، حين يكون لا يزال بوسع الباحث مقابلة الاحياء من ذلك الجيل الفائت.

### الهوامش

(30) حول هذه الجمعيات الادبية والسياسية "الجنين"، أنظر: العرفان، العدد 24، ص 704 وما بعدها. والفترة موضوع البحث هي تسعينات القرن الماضي.

(31) الكثير من المعلومات حول اقتصاد جبل عامل خلال الحرب الكبرى تفضل بها صاحب المعالي كاظم الخليل.

(32) أنظر مثلاً: العرفان، الاعداد 9، مواضع متفرقة؛ 14، ص 361، و25، ص 776. حول خروج الذهب من سوريا، أنظر: العرفان، العدد 16، ص 1 وما بعدها.

(33) المعلومات حول هاتين الانتفاضتين تفضل بها صاحب المعالي عادل عسيران وكاظم الخليل والسيد موسى الزين شرارة.

السلطة السياسية في جبل عامل. اما القوى المحركة لعلاقتها المتشابكة فهي موضوع معقد. والمنازعات بينها غالباً ما كانت منازعات بشأن الحاجة التي تملئها الحدود الاقليمية: حدود التزامهم للضرائب وقد زودهم استخدامهم الموفق لنظام الضريبة كما زودهم سلطانهم على موظفي الدولة الماليين بثقة بالنفس وبشعور بالاستقلال تمخض عنهما اعتناق نوع أو آخر من انواع القومية. واختار الزعماء على العموم من بين القوميتين المتوفرتين وهما الاسلامية والعربية/ السورية، فاختروا الثانية. وان احد الاسباب التي مكنت الشيخ احمد عارف الزين من اصدار العرفان لذلك الامد الطويل هو تمتعه بالدعم السياسي الثابت لأسرة الزين، والتي لم تفرض عليه، مع ذلك مذهباً صارماً بعينه.

وحين اندلعت الحرب العالمية الاولى كان قد مر على قوانين الارض العثمانية الجديدة في جبل عامل نحو ثلاثين او اربعين سنة. ومع تقدم الحرب كان من الواضح ان جبل عامل اخذ بالرخاء. وقد عاد تولي العسكريين للادارة على الملتزمين والفلاحين بأرباح طائلة. وبنيت شبكة من مستودعات الجيش التي كانت تصرف، في كل يوم، كميات هائلة من الحبوب.

واخذ الجيش العثماني والدولة يطلبان الآن ضرائب الارض عينا بدلا من طلبها نقداً من الملتزمين كما في الفترة السابقة. فكان المخمنون المكلفون بهذا الواجب يصلون بسرعة الى اتفاق مع الملتزمين يتم بموجبه تخمين حاصل الارض في جبل عامل بأقل من حقيقته وتكون النتيجة زيادة نصيب الفلاحين والملتزمين والمخمنين جميعاً من حصتهم المقررة من وارد الضريبة على حساب الدولة العسكرية والادارة<sup>(31)</sup>. ومن هنا فان قلائل جبل عامل في اوائل العشرينات وفي الثلاثينات مثل كلاسيكي للانتفاضات التي تحدث لأن الامور كانت تتحسن ثم تتوقف بفتة.

كان الانتداب الفرنسي في جبل عامل مثيراً للحنق بشكل خاص لأنه انهى فجأة ازمان الحرب "السعيدة" واعاد نظام الضريبة العثماني لما قبل الحرب، وهي

وقد بقيت طبقة الوجهاء ككل تحتل الصدارة السياسية وتمتاز عن بقية السكان باعتبار افرادها من الوجهاء وذلك عقب قانون الاراضي العثماني لسنة 1858. ولم يوضع هذا القانون موضع التنفيذ مباشرة بل جرى سريانه تدريجياً في مختلف مناطق الامبراطورية بمختلف الاوقات. وبدأ تأثيره بالظهور في جبل عامل في سبعينات وثمانينات القرن الماضي. ان تسوية الاراضي، على بدايتها وعدم دقتها، قد نظمت ضرائب الارض وجعلت من جبل عامل، الى جانب ذلك، وحدة اقتصادية اكثر رشاداً ففدت الزراعة اجزى دخلاً من ذي قبل. واخيراً، خلق قانون الضريبة وتسوية الاراضي جيشاً صغيراً من الموظفين الماليين والقضائيين كان اغلبهم على درجة كبيرة من ضعف المرتب بحيث انهم سرعان ما توصلوا الى تفاهم مع وجهاء المدن فأخذ النظام الضريبي يعمل لمنفعة الطرفين معا. وامسى الوجهاء انفسهم من موظفي الدولة في كثير من الحالات. وفي هذه الطبقة من الوجهاء وجدت في صور تسعينات القرن الماضي جمعية واحدة على الاقل في الجمعيات الادبية والسياسية الجينية التي هويت الاشغال بأمر من المعروف جيداً أنها محرمة من قبل الدولة العثمانية<sup>(30)</sup>.

ان مناقشتي تقتصر حتى الآن على القول ان الوجهاء هم في الاصل مجموعة من تجار الحبوب في جبل عامل في الفترة من اواسط الى اواخر القرن التاسع عشر، استغل عدد صغير منها القوانين العثمانية الجديدة لشق طريقهم الى طبقة الزعماء المجزية والاعرض صيتاً، وذلك عن طريق صيرورتهم ملاكين للارض وملتزمين للضرائب وموظفين في الدولة. وبرز ثلاث عوائل امكنها تحقيق شق طريقها هي آل عسيران وآل الخليل وآل الزين. فبمستهل القرن دخل كل هؤلاء الثلاثة، بطريقة أو بأخرى، في طبقة الزعماء. وفي هذه الاثناء لم يبق من طبقة الزعماء العشائرية القديمة سوى

استاذ التاريخ في الجامعة الاميركية في بيروت